الفصل الثالث
هموم وأشواق روحية

لقد قال طلعت حرب كلامًا جميلاً كثيرًا، بعضه كاد يكون لفرط رقته وعذوبته، شعرًا. ولكن أجمل ما قاله هو ما دار حول صلة ماضى مصر بحاضرها، وصلة مصر الحديثة بالغرب، وصلة روح مصر، بماديات العصر الحديث وفى كلمة، شخصية مصر. وليس هناك اشق على بناة الأمم، من التوفيق بين الماضى والحاضر، والتنسبيق بين الماديات، والروحيات، والتوازن بين الأصيل والمستورد.

الماضى الرائع، شديد الأسر، قوى الجاذبية، يبدو لبعده خاليًا من التفاصيل لذلك يبدو خاليًا من العيوب، ويبدو أجمل وأروع، إذا ما قورن بالحاضر، حتى ولو كان بدوره عظيمًا ورائعًا، لأن الحاضر مشكلات، والماضى ذكريات، والفرار من المشكلات إلى الذكريات، طبيعة إنسانية..

وإذا كانت هناك شهادة بأن طلعت حرب عظيم، وبأنه كان زعيمًا موهوبًا، فهذه الشهادة مستفادة من أقواله عن العقلية المصرية والشخصية المصرية. فمثله، وهو مشغول بالأرقام والحساب وبالإنتاج والتصدير، وبالصناعة والزراعة، كان خليقًا ألا يفطن إلى هذه الدقائق الروحية، وإن فطن إليها، لم يعن بالتعبير عنها، وإن عرفها لم يصل فى تعبيره إلى أغوار المشكلة وأعماقها، فقد كرس نفسه لعمل له بدوره مشكلاته، وهذا العمل جدير بأن يستأثر بانتباهه..

ولكن العمل فى ميدان الحساب والاقتصاد، والمصارف والشركات، كان ظاهر شخصية طلعت حرب، أما باطنه فهو ارتباط عميق ووثيق، بمصر، بوصفها رسالة، وموطن حضارة، ووعاء ثقافة ثم باعتبارها أمانة ووديعة لديه.

قال يوما وهو يتحدث إلى طلبة مصريين فى فرنسا:

(نريد عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة، نريدها عقلية مصرية مستقلة، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر من الخروج من تأثيره فينا، ووليدة حاضرنا نسعى إلى أن نربطه بماضينا، كما نسعى أن نقوده ونسيره إلى مستقبل حسن، والمستقبل وإن يكن بيد الله، إلا أنه إلى درجة ما، بين القوم، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وقد أبدأ القول فى هذا المعنى وأعاد فقال:

(خذوا اليابانيين مثلا ترون أنهم اقتبسوا من أمم الغرب أشهى ثمرات العلوم والفنون، غير أن عقليتهم بقيت يابانية، وثقافتهم ثقافة يابانية مشتركة مع الأمم الغربية فى الأصول الثابتة من رأس مال البشرية العقلى العام. ولكنها عقلية مستقلة وثقافة مستقلة. وإذا وجدت مثل هذه العقلية الممتازة فى أقلية ممتازة هى ذخر التقدم فى كل عصر، وفى كل بلد، فإن ضوءها يمتد كضوء الفنار على سواد المجموع فتصبغ عقلية الأغلبية بصبغتها متخذة الجامعة وسيلتها، والجامعة سائقة المدارس الأخرى).

ولست أريد أن أتعجل التعليق على هذا المعنى الضخم، قبل أن أضع تحت نظرك جميع ما يتصل به لتتبين مدى امتلاء نفس طلعت حرب به، ثم لتتبين أنه أساس من أسس تفكيره، فقد قال أيضًا:

(إن تعدد الجهات والأمم والدول الأجنبية التى يقصد إليها الطلبة المصريون، مرغوب فيه أكثر من توجيه أبنائنا المصريين إلى جهة أمة ودولة واحدة، ذلك بأن توحيد الجهة التى يقصدون إليها من شأنه أن يجعل العقلية المصرية المتعلمة فى الخارج تتأثر بطابع الدولة التى تم التعليم فيها لن استطاع أن يخرج بعقلية مستقلة وهو ما لا يكون إلا عند جبابرة الأذكياء. ولا يخفى ما يترتب على التأثر بطابع التهذيبات فى دولة واحدة

من أثر قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية بخلاف تنويع البلدان والدول التى يقصد إليها الطلبة المصريون فإن من شأنه أن يجعل عدة جماعات من المصريين المتعلمين تعليمًا عاليًا غالبًا موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى أثرت فى تكوينهم العقلى فيحدث من احتكاكهم فى العمل بعد عودتهم إلى مصر اتصال فكرى وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم إلى بعض تقربا يساعد على ايجاد عقلية مصرية ممتازة بذاتها مستقلة فى مجموعها عن أثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية).

وأحسب أنه بعد التأمل فى هذه الفقرات يمكن القول بأن نظرية (العقلية المستقلة) هى شغل شاغل طلعت حرب، وهو يزيد من الحاح على تأكيدها فيقول:

«هذه العقلية المتزجة المتشابهة، هذه العقلية المستمدة من تهذيبات الشعوب المختلفة، هذه العقلية القائمة على الملكة العلمية المشتركة بين البلاد، دون أن تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينها فيها، هذه العقلية التى يجب أن تكون مشتركة فى طرق العلم الثابتة مع أسمى الأمم الغربية دون أن تصبغ بمميزات هذه الأمم وخواصها، هذه العقلية التى نريدها فى شبابنا المتعلمين ومتخرجى الجامعات سامية عالية تناطح العقليات فى سمو إدراكها، هذه العقلية ينبغى أن تتكون بجهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون مصرية لا عقلية ألمانية، ولا عقلية إنجليزية، ولا عقلية فرنسية ولا عقلية أجنبية أخرى، وهذه العقلية يجب أن تكون مصبوغة بخواص الذكاء المصرى ومرآة صادقة للحسن من الطبع المصرى، فلا يفيد تعلم ولا تعليم، ما لم تكن منطبقا على طبيعة الإنسان، وطبيعة تكوينه العقلى والخلقى، فى زمان ومكان محدودين».

والحق أنى لا أعرف فى كل ما قاله زعماء مصر، بعد سنة ١٩٢٠، شيئًا فى خطر هذه السطور، وأهميتها وعمقها. ويزيد من خطرها، أنها صادرة من زعيم اقتصادى، ورئيس مجلس إدارة بنك، أو عضو مجلس إدارة هذا البنك المنتدب، ذلك لأن أبعد ما تنتظره من رجل اقتصادى فى مصر، أن تشغله الجوانب الروحية، للتقدم فى وطنه. لاسيما أن هذه الجوانب، لم تستوقف أحدًا قط من زعماء مصر السياسيين على اختلاف نزعاتهم، ومذاهبهم، بل أننا نستطيع أن نقول إن حتى زعماء الفكر، وكبار الكتاب وأساتذة الجامعة، مروا على هذه المشكلة الكبرى مر الكرام.. بعضهم، أشار إليها، أو كتب فيها، أو ناقشها، ولكن لم يعتبرها أى منهم أنها حجر الزاوية فى بناء أمتنا، فى تطورها الجديد، وهى تفك عن نفسها القيود التى كبلها بها الاستعمار السياسى والاقتصادى، ثم وهى تجيل نظرها فيما حولها، وفى ماضيها، باحثة عن نفسها، فى اسلوب حياة مستقر، واضح المعالم.

وليس هناك فى كل ما قاله طلعت حرب، ما يدل على صدق زعامته، وأصالته، واتساع أفقه، من هذه السطور، إذ لن توجد أمه، بغير أن تتوافر لها ذاتية تمثلها، وتشير إليها، وتبرز خصائصها، فالأمم التى تستورد، يمكن أن تغلب إلى حين مشكلات الفقر، وأن تزيد مواردها المادية، ولكن لن تلبث هذه المشكلات حتى تغلبها على أمرها، ولن يطول عمر هذه الموارد، مهما كانت غنية، ما لم يكن هناك سند روحى لها، فإن مشكلات البداية والنمو والتحرر، أكبر من أن تنفع فى حلها الثروات المادية، مهما عظمت، إذ لا بد من سند روحى، وأساس عقلى، يخفف عن الأمة، صدمات الفشل، ومتاعب التقدم، وآلام النقد، ويقيها التردد، والتذبذب، والذوبان المفضى إلى الهلاك.

وما قاله طلعت حرب قاله، غاندى، فغاندى كان يقول انه يفتح نوافذ حجرته لكل ما يهب من رياح، ولكنه يأبى أن تقتلع أقدامه ريحٌ واحدة، شمالية أو جنوبية، شرقية أو غربية، وتذهب به، فى وجهتها.

وهذا نفس ما دعا إليه طلعت حرب، إذ يجب علينا فى رأيه أن نوفد أولادنا إلى كل بلد ننتظر منه علمًا نافعًا، أو تجربة مجدية، وعلينا أن نغترف من فن وحضارة الآخرين، ولكن على أن نحتفظ بما سماه «العقلية المصرية المستقلة»، وأكد أن هذه العقلية المصرية المستقلة هى العقلية المصبوغة بخواص الذكاء المصرى، ومرآة صادقة للحسن من الطبع المصرى فلايفيد تعليم ولا تعلم ما لم يكن منطبقًا على طبيعة الإنسان، ولو أن طلعت حرب قال هذا الكلام مرة أو مرتين ثم نسيه، لما كان لهذا الكلام القيمة التى احتفظ بها لما أظهرت حياته، فى كل ناحية من نواحيها وكل درب من دروبها، إن هذا الذى قاله، هو مبدأ أو عقيدة، وأنه يصدر عنه، لا فى القول فحسب، بل فى العمل أيضا، وليس فى العمل الأدبى أو الفكرى فقط، بل فى الماديات والاقتصاديات كذلك. فقد كان يشفق غاية الإشفاق ويخاف إلى أقصى الحد من أن تختنق (روح مصر) وأن يصبح المصريون، صورة مطبوعة، لأصل أجنبى، ولا يهم أن يكون اسم هذا الأجنبى، إنجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا.

فهو حين يتكلم عن باريس يقول إنها «باريس السوربون والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب منزلته بمنزلة الأزهر من الشرق».

وهو يخطب فى الطلبة المصريين بباريس، يذكرهم بالآباء فيقول: «والطلبة الحاليون فى هذه المدينة والطلبة المصريون الذين يحتمل أن يقصدوا إليها فى المستقبل، جديرون بأن يقتفوا آثار سلفهم من متخرجى جامعة باريس» وتنقضى على خطبة طلعت حرب فى الطلبة فى باريس

إحدى عشرة سنة، وتبرم معاهدة سنة ١٩٣٦ ويقيم بنك مصر احتفالاً للمفاوضين المصريين فيخطب طلعت حرب فى هذه المناسبة، فلا يذهب كلامه، حديثًا مطلقًا فى السياسة أو الاقتصاد، وهو لو فعل، لخان هذه العقيدة التى شرحها وبسطها لأبناءه بما ارتفع بها إلى أعلى مقام، ولكنه بقى أمينًا وفيًا لعقيدته فخاطب الزعماء، الذين لم يألفوا أن يسمعوا هذا اللون من الكلام، أو أن يحتفلوا به، قائلا:

«لا يفوتنا أن نذكر هنا أننا فى دور انتقالنا أحوج الناس إلى التريث فى الدرس والحيطة فى النقل عن غيرنا. ولتكن لنا عقلية مصرية، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر من الخروج عن تأثيره فينا، ووليدة حاضرنا نسعى إلى أن نقوده ونيسيره إلى مستقبل أحسن» فالخطر الذى كان يفزع طلعت حرب - كما قلت - هو الانفصام عن الماضى، خطر التسول الروحى، خطر انعدام الشخصية، أو تفتت العقلية، أى زوال الإطار الذى يضمنا بعضنا إلى بعض: يضم الفلاحين والعمال، وأهل المدن، والمتعلمين فى مصر، والمتعلمين فى أوروبا، والآخذين بالعلم الحديث، والآخذين بعلم الأجداد، فالماضى وحده لا يكفى، والحاضر وحده لا يكفى، وقيام الواحد منهما إلى جانب الآخر بلا ربط، وتأليف، وتوفيق وتنسيق، هو التصدع.

إنه يحب الماضى. ولكن لا يحرق بين يديه البخور، ويذهل بآياته العظيمة عن الدنيا الماثلة الهائجة: والحاضر المتطور المندفع. فهو يذهب مثلاً إلى دمشق فيقولك «إن لدمشق منزلة خاصة فى نفسى شعرت بها حين وطئت قدماى أرضها فأحسست كأنى أطأ أرضًا فى منزلة الأراضى المقدسة، فإن للمدن التى عاشت الأجيال الطويلة فى ظلمات التاريخ ثم اندثرت، روحًا يشعر بها من جاس أطلالها، وناجى آثارها، الناطقة عن مدينة قديمة بائدة، وإذا كان هو شعور من يجوس إظلال المدن المندثرة، فما بالكم بإحساس من يجول فى المدن القديمة القائمة».

لقد حيا الماضى ، وقدم له فروض الإجلال والإعزاز، ولكن لا يلبث أن يودعه ليتحدث عن الحاضر، وعبق الماضى وأرجه، يملأ عليه الجو، ويوحى إليه، ويلهمه، فيوجه الخطاب لأهل دمشق:

«كما أن الطبيعة تعمل فى مدينتكم على إنتاج أفضل الأثمار، وأزهى الأزهار فإن مواهبكم العقلية، الماثلة فى خصبها لخصب أرضكم، تعمل على الابتكار فى ميدان الفنون والعرفان، ولولا ظروف قديمة تعمدت ألا تنتعش اللغة العربية، انتعاشها الواجب فى بلادكم لكانت أزاهيرها أينع مما نراه الآن، ومع هذا فكم لمدينتكم من فضل فى صيانة لغة القرآن، والحرص عليها من تلاعب الحدثان، وها أنتم أولاء، فقد زدتم فضلاً على سابق افضالكم فأسستم مجمعًا لغويًا يرد اللغة إلى أصولها، ويسعى لتجديد حياتها، فيبحث عن تسمية الأشياء بأسمائها أو يشتق للمستحدثات ما تسمح قواعد اللغة باشتقاق كلماتها أو تعريب ألفاظها».

وكالعادة يزداد إيغالاً فى الحاضر، بعد أن تزود من الماضى بما يكفى، فيقول:

«قالوا - من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا - إن اللغة العربية لا تصلح للتعليم فى مدارسنا، لأنها تقصر عن استيعاب العلوم العصرية، فصرنا على مضض نرى التعليم، يجرى بلغة غير لغة البلاد، حتى عاد إلينا بعض الأمر من شئوننا، فجعلنا التعليم بالعربية أساسًا فى الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعليا».

ثم تحدث عن الخلاف بين البلاد العربية فى الألفاظ المشتقة للسماء الحديثة فى اللغات الأوربية، وقال: «وسيبقى هذا الخلاف قائمًا، بين أبناء اللغة العربية ما داموا محرومين من هيئة علمية عامة تمثل فيها الأوساط العلمية والجامعات العربية، ويشترك فيها علماء اللغة المتازون من أى جهة».

وينتهى من هذا الاقتراح إلى الغاية البعيدة منه فقال:

«والواقع أن للبلاد المتكلمة باللغة العربية، مهما ابتعدت مواقعها الجغرافية بعضها عن بعض، ثقافة واحدة مشتركة المظاهر، فى كثير من مميزاتها وصفاتها، وواجب هذه الأمم وجماعاتها هو أن يعملوا دائمًا على تقريب دواعى هذه الثقافة وجعل اللغة الفصحى، واسطة نقلها من قطر إلى آخر وأن يعملوا دائمًا على توجيه اتجاهاتها بمجمع علمى عام مشترك».

وهو حينما يذهب إلى المحلة الكبرى، فى وسط دلتا النيل، يقول لأهلها، ما يقوله لأهل دمشق، فالماضى يتداعى بذكرياته لخاطره، يلهمه بخواطر وأفكار تتصل بالحاضرن وهو يحس أنه صلة الوصل بهذا الماضى الذى يريد أن يتراجع ويختفى، ليتركنا حيارى بلا اصول، أو يريد أن يتوسع ويكتسح، ليتركنا، آثارًا ، بلا حياة، وهو يأبى إلا أن يضعه فى مكانه اللائق، مصدرًا للإلهام، ومنبعا للوحى، وباعثًا على الحركة.

يقول لأهل المحلة الكبرى: «منطقتكم هذه كما امتزجت بمدنية قدماء المصريين، امتزجت أيضا بمدنية العرب، التى اتخذها المصريون مدينة لهم، وصقلوها بميزتهم الخاصة بفطرتهم وذكائهم وذوقهم»..

ولعلك بعد هذا كله، لا يساورك شك فى أن هموم طلعت حرب الروحية والثقافية، كانت تنافس همومه الاقتصادية والمالية، وأن الأولى كانت أساس الثانية ومصدرها، فهو لم يظن للحظة، أن فى مقدوره أن يبعث مصر، اقتصاديا، دون أن يبعثها روحيًا، وثقافيًا.

فإن كانت بقية شك لا تزال تساورك، فاسمع أخيرًا هذا الذى قاله لأهل دمشق، ليكون مسك الختام فى هذا الباب.

«هناك أمم من الغرب، لوحظ أنها تهتم بإقامة آثار لما يصيبها من هزيمة، أكثر من اهتمامها بإقامة لما تتوفق إليه من انتصار، وإنها تقيم الأثر

فى موقع هزيمتها بالذات لا لذكرى الهزيمة فإن ذكراها مؤلمة للنفوس بل للإرشاد عن طريق اتقائها مرة أخرى.

« هذه الأمة هى أمة بروسيا، قبل أن يتألف منها وجاراتها الاتحاد الألمانى سنة ١٨٧١ فقد لاحظ المؤرخ الفرنسى أرنست لافيس أن بروسيا أسست الجامعات حيث حلت بها الهزائم، فهى أسست جامعة (بينا) مثلاً سنة ١٨٠٤ عقب هزيمة جيوشها فى هذه البلدة، واحتلال نابليون الأول معظم بلاد ألمانيا وأسست معظم جامعاتها أثر هزائم عسكرية أو مصائب قومية فادحة من هذا القبيل، فالجامعات لديها قامت مقابل تماثيل النصر، وأقواسه لدى الفاتحين، وربما كانت الجامعات أصدق أثرا من تماثيل المجد والفخار فى تحويل الشعوب من حال إلى حال».